ندوة علمية تكوينية: "الوعي الحداثي عند الشعراء العرب "

يوم 29 أفريل 2024

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

عنوان المداخلة: راهن القصيدة العربية الحديثة وإشكالية المتلقي

إعداد الدكتورة: حميدة قادوم./ الرتبة أستاذة محاضرة أ.

ملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية الخوض في ظاهرة الحداثة التي اكتسحت الشعر العربي منذ الحملة الفرنسية على مصر، واختلف النّقاد والشعراء كثيرا في التّعاطي معها، ولذلك فإنّ هذه المداخلة محاولة في تحديد إشكالات الحداثة الشعرية وقضاياها، كما تحاول تقديم رؤية واضحة حول مصطلح الحداثة عند الغرب ثم في الشعر العربي.

الكلمات المفتاحية: الوعي– الحداثي– الشعر– العربي

Summary :

This research paper attempts to delve into the phenomenon of modernity that has swept Arab poetry since the French campaign against Egypt, and critics and poets differed greatly in dealing with it. Therefore, this intervention is an attempt to define the problems and issues of poetic modernity. It also attempts to provide a clear vision about the term modernity in the West and then in Arabic poetry.

Keywords: Modernist - consciousness- Arabic - poetry.

مقدمة:

يعبّر مصطلح الحداثة عموما عن حركة فلسفية في الفن والأدب، وهذه الحركة هي نتاج رؤى وحركات غربية سعت للثورة على النظم والمبادئ التي كانت تحكم المجتمع الأوروبي تحت لواء الكنسية في عصور الظلام، ولكن هذه الحقيقة تكاد تغيب عند النقاد والباحثين في هذا الشأن، أو يصرون على انكارها بشكل أو بآخر. فالحداثة التي نحن بصدد الكتابة عنها في هذه الدراسة كانت لها ارهاصات وإشارات قبل التاريخ المعلن عنه في الكتب التي تصر على جعل الثورة الفرنسية تاريخا رسميا لظهور الحداثة.

وقد انتقلت هذه الحركة الغربية إلى أدبنا وعالمنا العربي وأحدثت جدلا كبيرا بين النقاد والباحثين، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة الظروف التي نشأت فيها فكرة الحداثة عند الغرب ثم عند العرب. لذلك فقد شهدت القصيدة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين نقلة نوعية على مستوى البناء والرؤية، وأدى ذلك إلى الاصطلاح عليها بالقصيدة الحديثة، وأكثر ما يميزها هو مخالفة النظم والمبادئ وكسر النموذج التقليدي لقصيدة العربية سواء على مستوى الشكل أو على مستوى الموضوعات.

وبناء على كل ما سبق تحاول هذه الدراسة الخوض في حقيقة الفكر الحداثي الذي طال الشعر العربي، والبحث عن مخلفاتها وأثرها على النموذج العربي، ثم محاولة تقصي أبرز إشكالات الحداثة التي يقع فيها المتلقي باعتباره محور العملية التواصلية فيما استجد من كتابات ونقود.

1- الحداثة عند الغرب: أصولها وتطورها.

إن الحديث عن مصطلح الحداثة عند الغرب Modernité يجرنا قبل ذلك للحديث عن الأسباب والظروف التي أدت إلى ظهر هذه الحركة وامتدادها التاريخي، ولعله من نافلة القول أن نشير إلى طبيعة الحياة في أوروبا في العصور الوسطى /العصور المظلمة والتي تمتد من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر حيث كانت الكنسية هي الممثل الشرعي للإله على الأرض، فكانت تحتكر العلم الذي يخدم مصلحة الكنسية فقط، وعملت على تغييب العقل تغيبا تاما، ورفض العلم التجريبي وتحريم الفنون والأدب وغيرها، وهذا ما جعل سكان أوروبا يضيقون ذرعا بهذا الحصار الذي جعل منهم مجرد كائنات معطلة العقول، فثاروا على الكنسية شيئا فشيئا واجتمعوا على ضرورة التحرر منها والانقلاب عليها من خلال عدة حركات أسهمت في نشر الوعي الثوري لمجابهة نفوذ الكنيسة، فكانت حركة الإصلاح الديني التي قادها (مارتن لورث) أهم خطوة للانفلات من حكم الكنسية، ث بدأ الترويج إلى ضرورة تفعيل العقل الإنساني كونه مصدر المعرفة كلها، وبذلك شاعت مقولة الفيلسوف ديكارت الشهيرة (أنا أفكر إذن أنا موجود).

وفي أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، شهدت أوروبا عصرا جديدا كان أكثر جرأة في الانقلاب على الكنسية، وهو ما عرف بعصر التنوير، فمثلت الحداثة وقتئذ رد فعل طبيعي لكل تلك الحركات، وبقيام الثورة الفرنسية سنة 1760 عرفت أوروبا تحولات اقتصادية ساهمت في توسيع رقعة التحرر من براثن الحكم الكنيسي. وظهرت الرأسمالية والبورجوازية وغيرها إلى أن طالت مجال الفن والأدب.

فالحداثة بهذا المعنى "بدايتها مسّت الدين في أوروبا أي الكنيسة ثم انتقلت إلى الحكم السياسي، ثم تختم بالحداثة الفكرية والفلسفية والأدبية مع جون لوك وجان جاك روسو، وتوماس هوبز، وفلوبير، وقوته، وشكسبير، وبودلير، ومالارميه وغيرهم من رجالات

الفكر الغربي الذين قادوا الحداثة إلى طريق التنوير لتنحرف بعدها إلى طريق مسدود إلى العلمانية والالحادية أو الفوضى الخلاقة."[1]

وعليه يمكن القول أن الحداثة هي "حركة فلسفية في الأدب والفن"[2] وهذه الحركة تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر لتمثل انعكاسا لأزمة العالم البورجوازي، كما مثلت مشكلة يعيشها الفرد اجتماعيا وسياسيا وهي" ذلك الوعي بمتغيرات الحياة والمستجدات الحضارية والافلات من أغلال الماضي والانعتاق من هيمنة الأسلاف."[3] وفي سنة 1850 ظهر بودلير بقصيدته "أزهار الشر" فكانت فاتحة لظهور مصطلح الحداثة لأول مرة.

وقد أرجع بودلير السبب في ظهورها إلى ذلك النوّع من التّطور اللاواعي الذي وصل إليه الانسان الغربي، وذلك التحول الذي طرأ على الطبيعة من غياب الخضرة والأضواء الصناعية والانحلال الأخلاقي، وكل ذلك أثر على نفسية الشاعر والفنان معا، فحاول كلاهما تصوير الغموض الذي حل على حياتهما، وتلك الفوضة التي عمّت "وقد أثرت هذه الحساسية في إعادة النظر بموقف الشاعر والكاتب من أدواته وفي مقدمتها اللغة"[4] ومن هنا مثلت الحداثة اللغوية الانطلاقة الأولى التي رسمت درب الأفكار الحداثية، حيث اتسع دور اللغة من مجرد أداة للتعبير عن واقع مليء بالغموض إلى جعلها أداة لمحاولة فهم هذا الغموض وإيجاد تفسيرات واضحة له.

وعليه، يمكن القول أنّ الحداثة في الأدب الأوروبي لم تستقر ولم تقتصر على مفهوم واحد، إذ أن الاضطراب في المصطلح وارد حتى لدى منشئيه، كما أن المصطلح ذاته قائم

---

[1]– رضا عامر، الحداثة الغربية وتجلياتها على الشعر العربي المعاصر، مجلة المعيار، ع15 ، ديسمبر 2016، ص142.

[2]–السعيد بوسقطة، أحسن مزدور، حركة مجلة شعر، منشورات مخبر الأدب المقارن، عنابة، 2005 ص5.

[3]–المرجع نفسه، ص16.

[4]–إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي المعاصر، دار المسيرة، ط1 ، 2003، ص263.

على صراع الأخذ به أو رفضه. وقد تدرجت الحداثة في نشأتها من حداثة مبكرة اهتمت في بادئ الأمر بالشكل، إلى حداثة جديدة عرفت ب (ما بعد الحداثة) لتهمل الشكل وتضربه عرض الحائط، كما تميزت الحداثة" بأسلوب المغايرة والغموض والرمز الذي يحمل قيمة فنية لا تنكر"[5] فالأسلوب الجديد الذي تمثله الحداثة من مغايرة وغموض ساعد على إضفاء قيم جمالية غير متناهية في التعبير.

كما استطاع التّعبير الضمني المتمثل في الرمز تقديم الكثير مما لم يقدر عليه التعبير الواضح الصريح. فكل ما نلحظه على النّص الأدبي الحديث اليوم هو الخروج عن المألوف وكثرة الانزياحات فيه، وهذا ما جعل منها في أغلب الأحيان نصوصا غامضة تضطر المتلقي إلى العودة إلى المعاجم من أجل تفكيك شفراتها، غير أن الافراط في استعمال العنصر الرمزي يؤدي إلى الابهام، ومن ثم يحول دون تحقيق التّواصل بين النّص وقارئه.

2-**<u>الحداثة عند العرب: جذورها ومفهومها</u>**:

إنّ الكلام عن مفهوم الحداثة عند العرب لا يقلّ غموضا عن الحداثة عند الغرب، ومثلما أثار جدلا واضحا عند الغربيين، فقد ازداد لبسا وإبهاما لدى النقاد العرب، على الرغم من جذوره الضاربة في القدم، فقد تحدث عنه (ابن قتيبة) و(قدامة بن جعفر) و(المرزوقي) وغيرهم، ناهيك عما أضافه شعراء ونقاد العصر العباسي ولا سيما ثورة أبي نواس، وأبي تمام، وبشار بن برد الذي قيل عنه أنه "أستاذ المحدثين وأوّل المولدين لأنه أغرب في التصوير، فجاء بشبهات لم تكن مألوفة عند القدماء"[6]

وبهذا المعنى تظهر فكرة الحداثة في الشعر العربي عند النقاد بوصفها مخالفة للمألوف والمعتاد، أما أبو نواس فقد نظر إلى الشعر العربي نظرة تقوم على التمرد والثورة

---

[5]- السعيد بوسقطة، مرجع سابق ص20.

[6]-محمد عزام، الحداثة الشعرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د.ط، 1995، ص09.

على القوالب التقليدية التي اعتاد الشاعر الكتابة على منوالها" ودعا إلى وصف معالم الحياة الجديدة، والمشاعر الجديدة المتعلقة بها، ولم تقتصر ثورته على التمرد على القيم الاجتماعية والدينية، بل تجاوز ذلك إلى القيم الشعرية، فنبذ الوقوف على الأطلال، واستعاض عنه بإيثار حانات المدينة."[7]

ظهرت الحداثة عند العرب بوصفها حركة في نتاج كل من "فرنسيس مراش الحلبي سنة 1873، وأحمد فارس الشدياق سنة 1877، ونجيب حداد سنة 1899، بالإضافة جهود المهجريين الذين كتبوا شعرا أكثر استجابة لإيقاع الحياة بأساليب أكثر فرادة وخصوصية"[8] فقد كتب أولئك شعرا على غير العادة، وحقق بعد ذلك استجابة مع مستجدات الحياة، كما استعملوا أسلوبا جديدا في كتاباتهم وتميز بنوع من التفرد والخصوصية، والنص العربي إضافة إلى ذلك كله، فهو" لا يقوم على قطيعة أبستمولوجيا مع التراث العربي، حتى عند أشد غلاة الدعوة إلى القطيعة."[9]

إذن، فالحداثة لا تسعى إلى ردم الماضي بقدر ما تحاول أن تتمثله فتستوعبه وتتعمق في داخله، حتى تتمكن من استخراج ما هو حي في التراث لإعادة صياغته مع مقتضيات العصر، الحداثة " أنّ تجد الطريق لكيما تكون مساهما فاعلا في حضارة هذا القرن، لذلك فأنت مطالب بالتّمرد ، ومطالب بأن يكون في تمردك ما يستمد بعض حيويته من جذورك، وتضيف إليه من أصالتك المتجهة نحو ومانك، فتصبح جزءا فاعلا في عصرك، جزءا غير منقطع عن ماضيك، ولكنه جزء لا يكرر ماضيك، ويحفزه التّحرر حتى من حاضرك، أنا لا

---

[7]– المرجع السابق، ص ن.

[8]–السعيد بوسقطة، حركة مجلة شعر، ص26.

[9]– المرجع نفسه، ص27.

أقول بالانقطاع المطلق، فأنا أومن أنّ للتراث قوة هائلة في حياتنا، ويجب أن تبقى له القوة المغذية للنفس."[10]

يوضح هذا الموقف أنّ النّاقد يربط الحداثة بجانبين مختلفين، فهو يربطها أولا بالتّمرد على الماضي من جهة، والارتباط بالحضارة الراهنة من جهة أخرى، غير أنّ التّمرد لا يكون مطلقا، فهناك من الماضي ما يغذي به الحاضر ويمده بالطاقة الحيوية التي تحفزه للتطلع إلى مستجدات العصر.

ويضيف **(يوسف الخال)** رأيه في الحداثة قائلا "هي حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم ولا تكون وقفا على زمن دون آخر، فحيثما يطرأ تغيير على الحياة التي نحياها فتتبدل نظرتنا إلى الأشياء يسارع الشعر إلى التّعبير عن ذلك بطرائق خارجة على السلفي المألوف."[11]

والحقيقة أنّ مصطلح الحداثة يشير إلى حساسية ما، وإلى أسلوب ما، معا، يعبر عن القيمي من خلال البحث عن الجديد الذي يخالف التراث التقليدي، لذلك نجد الكلام عن الحداثة العربية يرتبط أساسا بالنّص الشعري باعتباره التراث الراسخ للأمة العربية، وبناء عليه ندرك "أنّ مسألة الحداثة الشعرية في المجتمع العربي، تتجاوز حدود الشعر بحصر المعنى، وتشير إلى أزمة ثقافية عامة هي، بمعنى ما، أزمة هوية، فهي ترتبط بصراع داخلي، متعدد الوجوه والمستويات، ترتبط كذلك بصراع المجتمع العربي مع القوى الخارجية، ونلاحظ في هذا الصّدد، أنّ العودة إلى القديم كانت تشتد طردا مع تزايد الصّراع الدّاخلي، أو شدّة الخطر

---

[10]– عيسى بلاطة عن جبرا إبراهيم، نافذة على الحداثة، ص05.

[11]– يوسف الخال، الحداثة في الشعر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1978، ص17.

الخارجي، ونجد في الحياة الإسلامية اليوم امتدادا قويا لهذه الظاهرة التّاريخية، مما يؤكد ما نذهب إليه."[12]

فالحداثة العربية هي حداثة فكرية ثقافية قبل أن تكون حداثة شعرية، تحمل بين طياتها مهمة تجديد الفكر العربي وتحريره من قدسية التّفكير التّقليدي، ومحدودية الأمل في الحياة، إنّها "حركة فكرية علانية علمية هدفها تغيير المفاهيم والمناهج التّقليدية التي تعالج الفن والأدب وإرساء مفاهيم وقواعد جديدة."[13] لتصبح الحداثة فكرا حرّا يسعى إلى الاهتمام بالإنسان وقضاياه في عصر تغيرت فيه موازين الحكم، والعلاقات والعادات، وتكون بذلك أسلوبا جديدا لحياة جديدة.

3-تجليات الحداثة في القصيدة العربية:

يعدّ النّص الشعري اللّون الأدبي الأكثر تأثرا بفكرة الحداثة، وقد اشتملت الحداثة معظم التقنيات الفنية التي تتشكل منها القصيدة العربية على غرار اللّغة والموسيقى والوزن، والتّركيب النّحوي والدّلالي وغيرها، ولعل التّركيز على هذه الجزئيات الدقيقة هي التي تمكن الباحث من الإجابة عن السؤال القائل: ما لحديث في الشعر الحديث؟

فلا شك أنّ عدوى الحداثة الغربية التي استقطبت كل جهات العالم وفي مجالات مختلفة، قد مسّت الشعر بصورة واضحة، حيث لم يعد الذوق يتوافق تماما مع الأفكار التقليدية والقوالب القديمة، وهذا ما أدّى بالفنان بوجه عام والشاعر بوجه خاص إلى إنتاج أفكار واستحداث قيم كلامية تتماشى مع الذوق الحديث، حيث استأثر الشعر الحديث بتجارب العصر الراهن.

---

[12]- أدونيس، الحداثة الشعرية، ص81.

[13]- سمير سعيد حجازي، النقد الأدبي وأوهام رواد الحداثة، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص215.

والحداثة التي ظهرت في الشعر إنّما هي الخروج به على ما عهده، وهي لا ترتبط بزمن محدّد لأنّ ما نعتبره اليوم حديثا يصبح في يوم من الأيام قديما وعليه فقد أصبحت المقدمة الطللية التي لم تكن القصيدة العربية تستقيم دونها غير موجودة في الشعر الحديث، مثلما أصبح العمود الشعري مخالفا لما كان عليه سابقا. حيث عزف كثير من الشعراء على نظم قصائدهم على ذلك نظام الوزن والروي الواحد. واعتقد كثير منهم أن الحداثة في الشعر تعني القصيدة الحرة فقط وهذا من المفاهيم الشائعة خطأ.

إن هذا الخلط الواضح في مفهوم الحداثة أدى إلى ظهور عدة إشكاليات على مستوى القصيدة العربية الحديثة ومن الإشكالات التي تطرح في هذا الصدد:

1-لغة الشعر الجديدة:

يستخدم شعراء الحداثة لغة تختلف عن اللغة العادية المألوفة وتركز على الإيحاء والترميز، على عكس لغة الشعر التراثي التي كانت تقوم على التصوير العادي المألوف" فإذا كانت لغة الشعر التراثي تعتمد على أن الشاعر يفكر بقلبه، ويشعر بعقله، فإن لغة شعراء الحداثة قد ردوا اللغة إلى أصولها الوضعية، المعتمدة على استحضار الأشياء ماديا أمام العين، لأن عالم اللغة مهما بلغ تجريده لابد أن يتصل بعالم الأشياء."[14]

ولعل أهم ما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، أن تغير اللغة المعتمدة في الشعر الحديث أصبح يشترط على المتلقي المعرفة بالمعجم الشعري الحديث حتى يتمكن من فهمها وقراءتها فيصبح شريكا في انتاج المعنى الثاني بصفته قارئا واعيا، ومنه ظهرت مصطلحات على شاكلة الحداثة الشعرية كما يسميها أدونيس، وهي" تساؤل جذري يستكشف اللغة الشعرية ويستقصيها، وافتتاح آفاق تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية، وابتكار طرق للتعبير

---

[14]- حمدي الشيخ، الحداثة في الأدب، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 2010، د. ط، ص10.

تكون في مستوى هذا التساؤل، وشرط هذا كله الصدور على نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون."[15]

يبدو موقف أدونيس من الحداثة الشعرية وهو ملتف حول مفاهيم أربعة تتشكل جميعها لتخلق لنا شعرا جديدا في قالب جديد على غير المألوف، ويظهر من خلال ذلك؛ الشعر الجديد بوصفه تمردا وثورة على اللّغة التّقليدية والمفاهيم المعتادة، وهذا بدوره يشكل فارقا كبيرا في الوعي بالنسبة للمتلقي الذي اعتاد على معان بعينها، وعليه؛ تفقد اللّغة حيادها، وتتلاشى المسافة بينها وبين التجربة، وتنصهر معها في أتون الموقف الجديد الذي أخضعت له، فتخرج من هذا الصهر متوجهة كالنار مثقلة بدلالات وإيحاءات وطاقات تعبيرية جديدة[16].

فالحداثة الشعرية إذن متعلقة بعمق التجربة الجديدة عند الشاعر الذي يرى فيها خلاصه من الجمود والركود، لتصبح حركة إبداعية بالدرجة الأولى تنسكب من خلالها معاني الحياة الواقعية ويزدهر من خلالها الفكر الإنساني وينفتح على العالم من أجل ترسيخ هذه الرؤى الجديدة، والمفاهيم التنظيرية ونقلها للشعر.

ظل مفهوم الحداثة الشعرية عند العرب مرتبطا بأطروحات الحداثة الغربية ومنها استقى رواد الحداثة العربية مفاهيمها المتعلقة بتحديث لغة الشعر، وأصبحت من شروطها وهو ما عبر عنه (جون كوين) – من رواد الحداثة الغربية– مؤكدا أن الحداثة في الخطاب الشعري لابد أن تستند إلى" كسره لنمطية اللغة واستحداثه لغة شعرية جديدة تتمرد على القوالب التي لاكتها الألسنة حتى أصبحت فارغة من مضامينها الحقيقية، والشاعر حين

---

[15]– أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ص321.

[16]–ينظر: عبد الله المهنا: الحداثة وبعض العناصر المحدثة، مجلة عالم الفكر، ع3، مج: 19، وزارة الاعلام، الكويت، ديسمبر 1988، ص26.وأيضا: علاء الدين رمضان السيد، ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث، ص29.

يتمرد على اللغة أو بعبارة أدق على نمطية التعبير، يعيد خلق اللغة من جديد، ويفجر الطاقات التعبيرية للألفاظ، من خلال البنى العميقة التي تشد أوصال الخطاب الشعري إلى البؤرة المحورية في النص، والتي تتفجر عنها تلك العلاقات، مانحة الألفاظ دلالات وإيحاءات جديدة."[17]

نفهم من هذا القول أن للحداثة الغربية تأثير كبير على الحداثة العربية التي اتجهت إلى كسر نظام القصيدة التقليدية، واستخدام لغة شعرية جديدة تتماشى مع التجربة الحداثية عن طريق لغة إيحائية غير مباشرة ومن هنا بدأت الثورة على المنظومات العربية القديمة المطولة، وبدأت الدعوة إلى ضرورة التحرر من قيود البحر والقافية وغيرها.

ويعد أدونيس من مؤسسي مجلة شعر من أكثر الشعراء جرأة على اللغة، إذ كان سباقا إلى توظيف لغة شعرية جديدة يغلب عليها الإيحاء والغموض، كمثل قوله:

...قل

-شيء

-هذا مخبر للغة العجيبة

لا شيء

تاريخ النساء

وحنان طيبة

ووهنها المعدني

...قل كل شيء (إلى آخر القصيدة)

---

[17]- كاظم جهاد، أدونيس منتحلا، دار افريقيا الشرق، المغرب، 1991، ص65.

يظهر هذا المقطع تأثر أدونيس واضحا بالحداثة الغربية في مفرداته وطريقة نظمه التي تؤدي بالمتلقي إلى الحيرة والاستغراب، فلا يمكن لأي متلق مهما كانت ثقافته أن يقدم تأويلا صحيحا لهذه المقطوعة الشعرية المستغلقة، وهذا ينافي إلى حد كبير مفهوم الشعر وإرتباطه بالإبانة والبلاغة، فالشعر لا يكون شعرا إلا إذا تميز بالبلاغة في التصوير والنظم، وفي هذا المقام نستحضر قول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عندما سئل: متى يستحق الكلام اسم البلاغة؟ فأجاب:" لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك."

وبناء على هذا الجواب للجاحظ يمكن القول أن كثير من القصائد الشعرية التي يدعي أصحابها الحداثة هي عبارة عن طلاسم قد لا يفهمها حتى الشاعر نفسه، لذلك اهتم القدامى كثيرا بجودة اللفظ والمعنى معنا، وفي هذا يقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء" تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه"[18] ص69.

2-الغموض:

الكلام عن الغموض في الشعر العربي الحديث يتعلق بمدى استيعاب المتلقي للغموض ومحاولة فهم المغزى منه، وذلك أن لفظة الغموض نفسها تحيل إلى دلالات عدة ووظائف كثيرة فالغامض من الكلام: خلاف الواضح، ويقال ، غمض، غموضة وغمضته أنا تغميضا؛ ويقال للرجل الجيد الأمر، قد أغمض النظر إذا أحسن النظر أو جاء برأي جيد، وأغمض في الرأي، أصاب مسألة غامضة: فيها نظر ودقة،(...).[19]

---

[18]-ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ص69.

[19]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ج11، مادة غ م ض، ص86.

والغموض بوصفه ظاهرة في الشعر العربي الحديث برز متأثرا بالفكر الغربي وهذا ما أحدث إشكالية وثورة في صفوف بعض الرافضين لشروط الحداثة التي تجعل للشعر الجديد قاموسا ومعجما خاصا به، لأن ذلك من شأنه أن يهين الشعر وينزله عن مكانته الحقة حتى يصبح مهانا متاحا لكل من هب، ومن هؤلاء الرافضين الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي الذي يرفض" الوهم القائل أن للقصيدة الجديدة معجما خاصا ، مؤكدا أن الألفاظ وحدها لا تصنع قصيدة ، ولكنها في اللغة والعلاقات التي تنظم هذه اللغة في السياق الشعري العام، ضمن نظام خاص يكسب اللغة خصوصيتها."[20]

والحقيقة التي لا مناص منها فيما يتعلق بقضية الغموض، أنها أصبحت تمثل إشكالية حقيقة نتيجة الخلط الواضح الذي وقع فيه الشعراء المحدثون، بين الغموض المذموم الذي يؤدي إلى استغلاق المعنى وإبهامه وبين الغموض المحمود الذي ينتج عن عمق الدلالة، حيث يصبح هذا الأخير معلما من معالم جمالية الشعر الحديث وعليه نجد أن القدامى تعرضوا لموضوع الغموض في الشعر وارتبط عندهم بالإبهام والاستغلاق، يظهر هذا المعنى عند ابن رشيق القيرواني(ت463) صاحب العمدة في صناعة الشعر ونقده، في قوله: " فقد قال بعض المتقدمين شر الشعر ما سئل عن معناه"(مج1، ص322).

ويقصد به ما كان غامضا من باب الإبهام، لأن الغرض من قول الشعر هو وصف المعنى في قالب شعري بعيد الغور، عميق الدلالة، ذلك أن الغموض والوضوح يتعلقان بدلالة الألفاظ وما ينتجان من العلاقات الجزئية في التركيب، في حين يكون بعد الغور متعلقا بما تؤول إليه هذه الدلالات التركيبية، لذلك نجد أن الشاعر عند العرب يبين المعنى ولا يستغلقه، ويوضحه ولا يبهمه، وقد أشار الجرجاني (ت471) في أسرار البلاغة إلى ذلك الصنف من الشعراء الذين يجنحون إلى الغموض المستغلق، فيقول:" وقد تجد في كلام

---

[20]– السعيد بوسقطة ، أحسن مزدور، حركة مجلة شعر وإشكالية المشروع الحداثي، تنظيرا وإبداعا، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، 2005، ص43.

المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفْهِم ويقول ليُبِين."(ص09)

تعد إشكالية الغموض من أبرز الإشكالات التي أفرزتها الحداثة الشعرية، وأدخلت الشعراء في دوامة كبيرة نتيجة الخلط بين غور المعاني واستغلاقها حتى وصل بهم الأمر إلى قول معاني ومقاصد لا يفهمها غيرهم، ليصبح بعدها المعنى في بطن الشاعر. وهذا مالا نرجو فائدة من ورائه، لأن "أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله وفهم العامة معناه "على قول ابن الاثير في المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب، ص178.

3-التجريب بين الوعي واللاوعي: والإفراط في توظيف الرموز والأساطير:

إن أكثر ما يلفت انتباهنا في شكل ومحتوى الشعر الحداثي بصفة عامة، هو استخدام الرموز للتّلميح بدل التّصريح، وهذه التقنية جديدة كل الجدّة على الشعر العربي، إذ حظي الرمز بشتى أنواعه بمكانة مرموقة على مستوى القصيدة الحداثية، ولعل أكثر هذه الرموز استخداما هي الرموز الأسطورية، وهذا وجه آخر من وجوه ربط الحداثة بالتراث، على اعتبار أن المادة الأسطورية مادة تراثية ساهمت الحركة الجديدة بإحيائها وبعثها من جديد وتوظيفها وفق منظور جديد ووفق تقنية جديدة، إذ كثيرا ما جنح الشعراء الحداثيون إلى " تضمين القصيدة أسطورة أو أكثر أو حكاية خرافية أو بطلا من أبطال القصص..."[21] غير أن الشاعر الحداثي لم يتوقف عند حدود التّوظيف فقط، بل تجاوزته إلى خلق أساطير معاصرة تناسب التجربة الجديدة على نحو ما فعل "سميح القاسم" و"محمود درويش" و"البياتي" الذين جعلوا من لوركا الشاعر الاسباني أسطورة، في حين نجد هناك من الشعراء من لجأ إلى الأسطورة الإغريقية والمصرية القديمة والبابلية، فنجد حضورا قويا لبعض الأساطير المشهورة على غرار تموز، وأدونيس، وعشتار، وأخيلوس، وإيزيس، وبرومثيوس وغيرها.

---

[21]-إبراهيم خليل، مدخل إلى دراسة الشعر العربي المعاصر، دار المسيرة، ط1 ، 2003،ص321.

4-الصّراع بين التّقليد والتّجديد:

ومن أكثر المعضلات التي تعاني منها الحداثة الشعرية منذ أن ظهرت هو الصراع بين التقليد والتجديد؛ ذلك أن الشاعر الحديث في التيار الذي يدعو إلى السلفية والتقليد لا ينظر إلى الماضي على أنه زمن قد مضى بكل ما يحمل من أحداث وتجارب الحياة الطاغية في زمن معين من التاريخ الضارب في القدم، حيث أن الحداثة في المجتمع العربي بدأت كموقف يمثل الماضي ويفسره انطلاقا من الحاضر كما يذهب إلى ذلك الباحث علي جعفر العلاق فيؤكد على أن الماضي" حيوات منفردة وطاقة روحية جياشة، وهو أيضا، زمن يكتظ بالدّلالة والغنى والتّوتر."[22]

وهذا يظهر أن نظرة الشعراء السلفيين إلى الشعر جعلت منها وراثة لأمجاد الشعر القديم، أي جعلوا من أنفسهم خصوما تعمل على التصدي للشعراء المحدثين والمجددين، كما حذروا من خطورة تجاوز هذا التراث، والتعامل معه على أنه عمل لا فائدة منه.

أدّى هذا التّعنت والتّشديد على التّمسك بالتراث والماضي إلى ظهور تيار آخر رافض لكل ما ينافي حرية الشاعر ومحاولة كسر القيود التي تحد من إبداعه، وعادوا في ذلك إلى موقف الغربيين مركزين على قول آدام سميث "دعه يعمل وأتركه يمر" وهذا القطب يلغي كل النماذج القديمة ويطالب بثورة فعلية عليها، ذلك أنّ الوعي بما يجري من أمور وطريقة تفكير الانسان تتيح له كسب المزيد من المعرفة التي بدورها تمكنه من فهم العالم وتشكيله باستمرار. لذلك فإنّ الصراع القائم بين التّقليد والتّجديد في الشعر الحديث، يعتبر من أهم المعضلات التي ظلّ يتخبط فيها.

خاتمة:

---

[22]- علي جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، دراسة نقدية، دار الشروق، ط1 ، 2003

ظلّ مصطلح الحداثة يطرح العديد من الأسئلة والغمض ، وتوسعت دائرة الوعي به فظهرت تيارات كثيرة ومدارس كل منها ينّظر للحداثة كما يراها مناسبة، في حين ظل الصراع بين النقاد والشعراء قائما حول حداثة الشعر العربي ومرتكزاته الأساسية، لذلك فإننا في هذه الدراسة نقر بأن الحداثة هي حركة جمالية في الشعر العربي ما التزمت بالقواعد الأصيلة للشعر العربي الأصيل وتكييفه مع قضايا العصر الراهن واحترام عقل المتلقي في خلق لغة حداثية لا تلغي قيمة اللغة الشاعرة والبلاغة العربية، وتكون (الحداثة) فلسفة لا فائدة منها كلما ضلت طريقها في بناء القصيدة العربية لتصبح مجرد كل لغوي رث لا يؤدي إلى فائدة مهما حافظ على إيقاع الموسيقي ولنا في الشعر الحديث نماذج كثيرة لهذا الصنف الذي فشل أصحابه في فهم الحداثة واستثمار مرتكزاتها الحقيقية.